كربلاء في شعر العشاري

الأستاذ الدكتور

عماد عبد السلام رؤوف

كلية الاداب – جامعة صلاح الدين – اربيل

الملخص

حسين بن علي العُشاري، شاعر عالم أديب، انحدرت أسرته من قرية عُشارة الكائنة على الخابور.

ولد في بغداد، وعاش فيها،وأخذ عن كبار علمائها، وكانت فيه نباهة ظاهرة، فبز أقرانه في العلم والأدب، وطار صيته بالفقه، ونبغ بالشعر، وكانت له مؤلفات مهمة في انواع من العلوم والمعارف، ومع ذلك كله فإن حياته كانت بعيدة عن اسباب السعادة، فلاحقه بؤس عجيب، ولقي من حكام عصره كل عنت، فلم ينل حظه من منصب على استحقاقه اياه، ولم يجد له من مورد رغم جدارته به، وصار يعيش على نسخ الكتب وهي مهنة مَن لا مهنة له من مثقفي ذلك العصر. لقي العشاري من ولاة عصره ما لقي، حتى إذا تولى سليمان باشا الكبير ولاية بغداد تداركه باهتمامه فعينه قاضياً في البصرة سنة ١١٩٤هـ، فلبث هناك ألى أن توفي سنة ١٢٠٢هـ.

ولم تخلُ قصائده من ثورة وضيق من أوضاع عصره، وتعريض بالظَلَمة من ولاة ذلك العصر، ومراسلات مع رؤساء القبائل العربية الثائرة، وربما كشف ذلك عن اسباب ضيق الولاة به ايضاً، وكان بعض شعره يأخذ مأخذ (المنشورات السياسية) كما نقول في هذه الأيام، يذهب الى العتبات المقدسة فينشدها هناك، وينسخ منها الناس نسخا فتنتشر، ورغم كثرة ما نظم، فإن أكثر شعره ضاع وتفرق في حياته، ثم انه جمع ما وصلت اليه يده فتألف منه ديوان كبير، عثرنا منه على بضع نسخ في بغداد والنجف والبصرة، فكان أن حققناه، مشاركة مع الشاعر الحاج وليد الاعظمي رحمه الله، وصدر سنة ١٩٧٧م، شاغلاً ٦٥٤ صفحة كبيرة.

حفل ديوان العشاري بقصائد بديعة في مدح آل بيت الرسول ﷺ، وخُصَّ الإمام الحسين عليه السلام بعدد منها. وتلك القصائد مؤرخات في السنوات ١١٨٠هـ، ١١٨١هـ، ١١٨٢هـ، ١١٨٣هـ وهي مدة من حياته تمثل ذروة معاناته وتمرده، وضيقه من ولاة عصره، فواضح انه كان يجد في رثائه واستذكار مآثره وثورته صدى لما كان يعتلج في وجدانه من ثورة على واقعه نفسه. وقد صرح هو، في تقدمات قصائده، أنه كان ينظمها في أثناء وفوده إلى قبره الشريف لأداء واجب زيارته. وتعد قصائده تلك من روائع شعره كله، كما انه وصف في بعض قصائده بعض معالم مدينة كربلاء من قصور وحمامات وغير ذلك.

Karbala in Al-Ohsary's Poetry

Prof.
Imad Abdulsalam Raoof
College of Arts – University of Salahuddein - Erbil

Abstract

Hussein Bin Ali Al-Oshary is a poet, a scientist and a writer. His family is from the village Oshara which lies on Al-Khabour river. He was born and lived in Baghdad, got his education with the great thinkers there and he was obviously talented. He overcame his peers in science and literature and had written significant literary works on different kinds of sciences. In spite of that, his life was not only happy but also full of despair. He received a severe treatment from the rulers at that time and couldn't get what he really deserved. He couldn't either earn much and depended only on what he photocopied to earn his living which was the job of those who couldn't find a job. When Suleiman Bash, the great, took over authority, he took care of Al-Oshary and appointed him the judge of the city of Al-Basrah in 1194 Hijri where he stayed till he died in 1202 H.

Most of Al-Oshary's poems were full of revolutionary attitudes against the hard circumstances at that time and the rulers' cruelty. His poems also contained messages to the Heads of the tribes calling for revolution and some poems can be considered as if they are political publishes. He used to go to the holy shrines and uttered his poems there, and people copied them. That is why his poems had spread among people. Although he had written many poems, a lot had been lost during his life, then he had collected what he could and made a collection. The researcher has found some copies of this collection can be found in Baghdad, Najaf and Al-Basrah and, with the assistance of the late poet Haj Waleed Al-Aadhamy, published a collection of Al-Oshary's poems of about (654) pages in 1977.

Al-Oshary collection of poems is full of poems that praise the Prophet Mohammed and his family specifically Imam Al-Hussein (peace be upon them). The citation of those poems was in 1180, 1181, 1182 and 1183 which refer to a period part of Al-Oshary's life when he was suffering a lot and was insurgent. It is obvious that he found in lament and condemnation of his revolution a reflection of his feelings of self-denial. He himself declared in the introduction of his poems that he was writing them while he was visiting Al-Imam Hussein's holy shrine. Those poems were considered masterpieces of his poetry, besides he described some places of Karbala, especially the palaces, pigeons and so on in his poems.

كربلاء في شعر العشاري

حسين بن علي العُشاري، شاعر عالم أديب، انحدرت أسرته من قرية عُشارة الكائنة على الخابور، قرب مدينة (الرحبة) القديمة[١].

قلعة الرحبة القديمة

وولد هو في بغداد، وعاش فيها،وأخذ عن كبار علمائها، وكانت فيه نباهة ظاهرة، فبز أقرانه في العلم والأدب، وطار صيته بالفقه، حتى عرف بالشافعي الثاني وبالشافعي الصغير[٢]، وقيل إنه كان "له تضلع كلي في سائر العلوم"[٣]، ونبغ بالشعر، وكانت له مؤلفات مهمة في أنواع من العلوم والمعارف، ومع ذلك كله فإن حياته كانت بعيدة عن اسباب السعادة، فلاحقه بؤس عجيب، ولقي من حكام عصره كل عنت، فلم ينل حظه من منصب على استحقاقه إياه، ولم يجد له من مورد رغم جدارته به، وصار يعيش على نسخ الكتب وهي مهنة من لا مهنة له من مثقفي ذلك العصر. لقي العشاري من ولاة عصره ما لقي، حتى إذا تولى سليمان باشا الكبير ولاية بغداد تداركه بأهتمامه فعينه قاضياً في البصرة سنة ١١٩٤هـ، فلبث هناك إلى أن توفي سنة ١٢٠٢هـ[٤].

وله ديوان كبير وصف الآلوسي شعره بقوله إنه "أرق من دمعة الصب، وألطف من وابل غب جَدب، وفيه أنواع كثيرة من الشعر، وقد فاق أكثر أصحابه في ذلك"[٥].

ولم تخلُ قصائده من ثورة وضيق من أوضاع عصره، وتعريض بالظَلَمة من ولاة ذلك العصر، ومراسلات مع رؤساء القبائل العربية الثائرة، وربما كشف ذلك عن اسباب ضيق الولاة به أيضاً، وكان بعض شعره يأخذ مأخذ (المنشورات السياسية) كما نقول في هذه الايام، يذهب إلى العتبات المقدسة فينشدها هناك، وينسخ منها الناس نسخا فتنتشر، ورغم كثرة ما نظم، فإن أكثر شعره ضاع وتفرق في حياته، وقد شكا هو من ذلك بمرارة، ثم أنه جمع ما وصلت إليه يده في فتألف منه ديوان كبير، عثرنا منه على بضعة نسخ في بغداد والنجف والبصرة، فكان أن حققناه، مشاركة مع الشاعر الحاج وليد الأعظمي رحمه الله، وصدر ضمن أصدارات وزارة الأوقاف سنة ١٩٧٧، شاغلا ٦٥٤ صفحة كبيرة.

حفل ديوان العشاري بقصائد بديعة في مدح آل بيت الرسولﷺ، وخُصَّ الإمام الحسينعليه السلام بعدد منها. وتلك القصائد مؤرخات في السنوات (١١٨٠هـ، ١١٨١هـ، ١١٨٢هـ، ١١٨٣هـ)، وهي مدة من حياته تمثل ذروة معاناته وتمرده، وضيقه من ولاة عصره[٦]، فواضح أنه كان يجد في رثائه وإستذكار مآثره وثورته صدى لما كان يعتلج في وجدانه من ثورة على واقعه نفسه. وقد صرح هو، في تقدمات قصائده، أنه كان ينظمها في أثناء وفوده إلى قبره الشريف لأداء واجب زيارته[٧].

والقصيدة الأولى[٨] نظمها عند زيارته كربلا سنة (١١٨١) وهي رائية من بحر الطويل، تقع في (٤٧) بيتاً، افتتحها العشاري في بيت واحد اعترف فيه بأن غرامه وشوقه، على عظمها، يتصاغران أمام عِظم مقدار المحبوب، فكان ذلك البيت استهلالاً موفقاً لما يليه من بيان مزايا المحبوب نفسه، فشرع يخاطبه بما يظهر سموه على سائر الكائنات، فكأنه كان مركز الكون، تشير إليه تلك الكائنات متجاوزة حدود الزمان والمكان، ثم إنه شبَّه ذلك المركز بالشمس التي تتوسط الكون الحالك وبالكواكب تدور حولها، فهي نور ساطع يضيء كل الجهات.

وبعد هذه المقدمة في بيان قدر من قصده انتقل إلى الدافع وراء زيارته فكان هو الشوق القديم الذي يعده طبعا فيه. وإذا كانت قصائد العشاري السابقات في آل البيت تبتدئ بوصف الطريق إلى مشاهدهم، إلى حد ذكر الخانات ومحطات الطريق، فان طريقه إلى كربلا، في هذه القصيدة جاء يشبه أن يكون سَفَراً روحياً تماماً لا مادياً، في صورة فنية متكاملة، فهو سير على قبة السماء، والمطايا طيور تعود طائرة إلى أوكارها يحدوها الشوق اليها، ثم إذا به يهبط إلى أرض الواقع، ليسمع صوت الدواب وهي تطرق بأخفافها أديم الغبراء.

ويتنقل بسرعة بين وجوه القاصدين الغبر، نتيجة وعثاء الطريق، وبين طهارة المقصودين في المكان الطاهر، فلا سبيل إلاّ التطهر بغسل القلوب قبل غسل الوجوه.

ثم إذا به يصف مشاعره وهو يصل إلى أعتابهم، فالدمع ينهال على الخدود، والأجفان تسيل، والمهج تذوب وجداً.

طويلُ غرامي في هواكَ قصيرُ
نعم! وكثيرُ الشوقِ فيكَ حقيرُ
سَموتُم فكل الكائناتِ لفضلكم
مدى الدهر من كل الجهات تشير
وأنتم شموس العالمين بأسرهم
وفي ظلمة الليل البهيم بُدور
أنارت بكم كل الجهات لأنكم
لكل الورى يا آلَ أحمد نور
ولما ورت نار الغرام وحرَّكت
قلوباً من الشوق القديم تفور
سَرَينا على الغبراء حتى كأننا
على قبة السَّبع العَوال نسير
تسير بنا شُهب المطايا كأنها
طيورٌ إلى أوكارهنَّ تطير
تحركها الأشواق طبعاً وكم غدا
لأخفافها عند المسير صَرير
عَلونا عليها والجوانح لم تزل
يشبُّ بها عند الرحيل سَعير
قصدناكمُ نرجو النوال لأنكم
غيوثٌ لمن يبغي الندى وبُحور
أتيناكمُ غُبر الوجوه وتُربكم
غسولٌ وماءٌ للقلوب طَهور
وزرناكمُ يا خيرة الله في الَورى
وقد طابَ منا زائرٌ ومزور

وجئنا عليَّ القدر والدمع سانح
له فوق أطراف الخدود غدير
لثمنا ثرى ذاك المقام لأنه
زُلال إذا اشتد الظما ونمير

حتى إذا ما قَبَّل الأعتاب، سكنت النفوس المشتاقة، وجرى وصال المحبوب، وتم النوال،فينتقل العشاري هنا إلى وصف حبيبه، وهو الإمام السبط عليه السلام، معدداً مآثره، ومذكراً بمنزلته، فيقول:

أتينا الشهيد السِّبط دُرة حيدر
وليس لها بين العِباد نظير
وريحانة المختار كم شمَّ عُرفها
فيَعبق منها مَندَل وعبير
وكم ضمَّها للصدر منه إشارة
إلى أنهم للعالمين صُدور
وقبَّل ثغراً منه والوجه مشرق
له فرحة من أجلها وسُرور

وينتقل إلى ذكر واقعة الطف، مذكراً بإخبار النبي بها، ومتناولاً هول ما حدث فيها من اعتداء على حُرم النبي، ثم يعرج بعدها إلى ما رافقها من مآس انسانية، تمس أطفالاً ابرياء، ونساء مخدرات، فيقول:

أصيب به حياً وأخبر أهله
بما ناله لاشك وهو خبير
لما كان حين النقع ثارٌ وأقبلت
خيولُ العِدى في كربلاء تثور
خيول عمَت لما تعامت سُراتها
عليها سفيه ناكث وعقور
فجالت على آل النبي فيالها
مصائب سُود في الكرام تدور
فما كان فيهم من تذكَّر أحمد
ومدحه للظاعنين غزير
أما كان فيهم من تذكر بنته
وبضعاها في كربلاء تحير
أما كان فيهم من تذكر حيدراً
فتى الحرب مقدام الجيوش أمير
أما كان فيهم من يَرق لصِبيةٍ
لهم حَنّة في كربلا وزفير
أتمنع أطفال النبي على الظما
من الماء والماء الفرات كثير
صغار من الرمضاء أمسوا ذوابلاً
وليس لهم يوم الهجير مُجير
فديتُ بأولادي الصغار صِغارهم
فخَطبُهم بين العباد كبير
سقاك إله العرش يا فاتكاً بهم
شراباً به منك الدماغ يفور
طَغَيتَ وأحزنتَ الرسول بقبره
وأطفأت نوراً في الوجود ينور
شقيتَ ودارُ الأشقياء جهنمٌ
لها زفرة من حَرِّها وسعير
ولا بأس إن أوذوا ولله دَرّهم
فتلك مقاماتٌ عَلت وأجور
حسين! حسين! من يدانيك في العُلى

وفضلك يا سِبط النبي شهير
هو الطف فاجعل الدمع عسجدا

فداك أبا الأشراف روحي ومهجتي
وصغ لك فولاذ الغرام مهندا

وما ذاك إلا تافةٌ وحقير
ورد منهل الأحزان صِرفاً وكررن

ولستُ عن العباس سال فإنه[9]
حديثاً لجران الطفوف مجددا

كريم بأنواع الثناء جدير
وما القلب إلاّ مُضغة جد بقطعها

رفيع تدلى من ذؤابة حيدر
ودعها فداء السِّبط رَوحي له الفِدا

أبيك وذو قدر هناك خطير
أترضى حياة بعدما مات سيد

له عقلٌ فوق المحافل كلها
غدا جده المختار للناس سيدا

ومحفلُ فضل في العُلى وسرير
أترضى اكتحال الجفن بعد مُصابه

كرامَ العَبا قلبي إلى حبكم صَبا
وجفن التقى والدين قد بات أرمدا

له حرقة يوم النوى وزفير
خذ النَوح في ذاكَ المُصاب عزيمة

لجدكم فضلٌ عليّ ومنة
إلى الفوز واجعل صَهوة الحزن مقعدا

وجودٌ وإنعامٌ عليَّ غزير
ويخاطب الإمام الشهيد مبيناً عِظم قدره، معرجاً بعد هذا على وصف مأساة مصرعه وجزاء غادريه من العذاب.

هداني وآواني ولم أعرف الهدى
فيا فرقداً ضاءَ الوجود بنوره

فصرت على نهج الرشاد أسير
فلا بعده تلقى ضياء وفرقدا

أأنسى نداكم يا سلالة هاشم
وريحانة طاب الوجود بنشرها

وأنكره إني إذن لكفور
بها عبثت أيدي الطغاة تعمدا

على جدكم أزكى صلاة بأسرهم
ودُرة عِلم قد أضاءت فأصبحت

وصحباً رحاهم في الكمال تدور
تمانعها الأوغاد منعاً مُجرَّدا

وتفصح مرثيته[10] التي نظمها في أثناء زيارة أخرى له إلى كربلا سنة (١١٨٤هـ) عن شكواه من مصائب داهمته جعلت حياته (حميماً وغسليناً)، وطمعه في نوال من قصدهم بالزيارة. والقصيدة دالية، وهي من بحر الطويل أيضاً، وتقع في (٣٢) بيتاً. وقد انفردت بها نسخة مكة المكرمة، وخلت منها النسخ الأخرى التي اعتمدناها لتحقيق الديوان.

بروحي منها منظر بات في الثرى
ويا طالعاً قد باتَ في حِجر أحمدا

وثغراً فم المختار مَصَّ رضابه
وهذا يزيد بالقضيب له غدا

ورأسـا يـد الـزهـراء كـانـت وسـادة
لـه فـغـدا بـالـترب ظـلـماً مـوسّـدا
لـئـن أفـسـدوا دنـيـاك يـا ابـن محمدٍ
سيـعـلـم أهـل الـظـلـم مـنـزلهـم غـدا
لـئـام أتـوا بـالـظـلـم طـبـعـاً وإنـما
(لـكـل امـرئـ من دهـره ما تـعـودا)[11]
وحـقـك مـا هـذا المـصـاب بـضـائـر
لأن الـورى والخـلـق لم يخلقوا سدى
فـألـبَـسَـك الـرحمـن ثـوب شـهـادة
وألـبَـسَـهـم خـزيـاً يـدوم مـدى المدى
لبـسـتـم كـسـاءَ المـجـد وهـو إشـارة
بـأن لـكـم مجـداً طـويـلا مخـلـدا
وطـهّـرَّكـم رب الـعُـلى في كـتـابه
وقـرر كـل المـسـلـمـين وأشـهـدا

وينتقل بعد ذلك إلى تبيان شكواه المرة من دهره فيقول:

بـني المصطفى عـبـدٌ لـكـم ودّه صفا
فـأضـحـى غـذاءٌ لـلـقـلـوب ومـوردَا
غـريـب عـن الأوطـان نـاء فـؤاده
تـضـرَّم مـن نـار الأسـى وتـوقـدّا
ألمَّ بـه خـطـبٌ مـن الـدهـر مظلم
تحـمـل مـن أكـداره وتـقـلـدّا
نـضـا سـيـفـه في وجـهـه مـتـعـمِّـداً
وجـرّده عـن حـقـه فـتـجـردا
بـبـاكـم ألـقـى الـعـصـا وحـريـمُـكم
أمـانٌ إذا دهـرُ طـغـى وتمـردّا

أتـاكـم صريخـاً مـن قـلـوب تـواتـرت
عـلى ظـهـره في الـيـوم مثنى ومفـردا
أتـاكـم لـيـسـتـجـدي الـنـوال لأنكم
كـرامٌ نـداكـم يسبق الـغـيـث والـنـدى
أتـاكـم ليحمي من أذى الـدهـر نفسَه
وأنـتـم حُمـاة الجـار إن طـارق بـدا
أتـاكـم أتـاكـم يـا سُـلالـة حـيـدر
كـبـيراً يـنـاديـكـم وقـد أعـلـن الـنـدا
حـسـين أقـلـني مـن زمـان شرابـه
حمـيـم وغـسـلـين إذا مـا صـفـا صـدا
عـلى جـدك المـخـتـار صـلى إلهـنـا
وسـلـم مـا حـادٍ إلى أرضـه حـدا
وعـمَّ بهـا آلاً وصـحـبـاً وتـابـعـاً
لهـم ومحـبـاً لـلـجـمـيـع مـوحـدّا

وللعشاري مرثية رائية جميلة في خمسين بيتاً[21]، وهي من بحر الطويل، وقد قدم لها بمطلع مبتكر، فوصف لوعة حبيبته به وهي فتاة في الرابعة عشر من عمرها حينما علمت بعزمه على السفر، واختار أن يعدها بنتاً للشاعر عمرو بن مالك الاوسي، وأنه اضطر إلى مصارحتها بسبب سفره وهو أنه لم يعد يطيق الاقامة في بلاده:

بكت وبكى من أجلها العِقد والنحرُ
فـتـاةٌ لهـا مـن بـعـد أربـعـهـا عـشرُ
بكت مُذ رأت أني عزمت على النَوى
وأنّـت ونـظـم الـدمـع في خـدهـا نـثرُ
ومُـذ أيـقـنـت بـالجـد مـني تعلقت
بـثـوبي ومـن أردانهـا يـعـبـق الـعـطر

وقامت وضمّتني إلى الصدر ضمّة
لصدري بدا من نار لوعتها حر
وقالت: إلى أين المسير وأنني
حديثة عهدٍ فيك ما هكذا الهجر
فحانت لطرفي عند ذاك التفاتة
وفي مهجتي من نار فرقتها جمر
وقلت: أهجراً من محب وشيق
يلذ له في حبك النهي والأمر
يريد رحيلاً والغرام بقلبه
يحاول مالا تفعل البيض والسمر
ولكنني يا بنت (عمرو بن مالك)
كرهتُ دياري حين لذّ لي القفر
سأقطع ظهر البَرَ البر قاصداً
وأركب لج البحر كي يسمح البحر
على سابق طرف يسابق طرفه
ويجري كما تجري بسبسبها العفر

وبحسن تخلص مفاجئ ينتقل الشاعر إلى تفسير رغبته في فراقها بأنه الشوق إلى اللحاق بآل بيت الرسول عليهم السلام، ثم إذا به يصف رحلته إلى تلك الرحاب فيقول انه انطلق مسرعاً في ليل بهيم لا انيس فيه إلا نجوم السماء ونسمات السحر، ولا هادي له في وجهته غير ما كان يهب من نفحات الآل "ولها سر":

عدا مثل ما يعدو الظليم ولم يرد
سوى الآل لا ظل هناك ولا قطر
تمطيته والليل كالبحر مظلم
سفائنه الأفلاك والأنسم الزُهر
رمى صخرة البيداء حتى تفجرت
له أعين منها وما مطلع الفجر
وطار كما الورقاء حَنَّت لفرخها
دعته بلا زاد وقد سقط الوكر
فقلت له مهلاً رويدك انها
مَهامِهٌ عن إدراكها يقصُر النسر
وإني لتهديني إلى الربع نفحة
سرت من معاني تربهم ولها سر

وهنا ينتقل إلى التصريح باسم من يقصده، يعنى الامام الحسين عليه السلام، فيذكر مزاياه، وأنه وأخوه الحسن قد تقاسما صورة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وخلقه، شجاعة وكرماً، فهما سيدا شباب أهل الجنة بلا منازع:

ونور الإمام الحيدري الذي عنت
لغُرّته الشمس المنيرة والبدرُ
وريحانة كم شمَّها الطهر أحمدٌ
ففاح له من طيبُ عنصره النشر
له الشبه السامي بنصف محمدٍ
وفاز بباقيه الفتى (الحسن) الطُهر
هما اقتسما شبه الرسول وراثةً
وناهيك من فخر يدين به الفخر
هما نقطتا ياء النبي فطالما
من المصطفى المختار ضمهما الصدر
هما قرّتا عين البتول وحيدر
فيا عجباً أنْ كيف غالهما الشر
هما نيّرا مجد وعلم وسيداً
شباب جنان الخلد فيما أتى الذكر[13]

هما بطلا حربٍ وليثا بسالة
وغيثا ندى فيما إذا بخل القطر
هما بحر علم إن وردت مياهه
رويت وفي كفيك من فضله در

ثم إنه يلتفت مخاطباً الإمام الحسين عليه السلام متذكراً ما تعرض له من مآس دامية في واقعة الطف، حيث حُزت النحور، وضربت الأعناق، وعُطش الأطفال، وانتهكت الحرمات، ويختم مرثيته بالتذلل عند بابه مستجيراً به من مصائب دهره، فيقول:

ألا يا حسين السِّبط يا ابن محمدٍ
ومن قد سما في العالمين له قدرُ
مُصابك قد أولى الوجود كآبة
مدى الدهر لا تفنى وإن فني الدهر
ففي كل قلب منه نارٌ توهج
وفي كل صدر من تأججها حر
وجود بكى لما سقطت على الثرى
إلى الآن لم تنزف لمدمعه العدر
لئن بكت الأجفان ماءً لفقده
فتلك عيونُ الأفق أدمُعها جمر
عَمَت عينه لما توارى سوادُها
فضل عن الخيرات وانعكس الأمر
مصائبُ سُود قد أصيب بها الورى
على كل قلب من غشاوتها سِتر
ونارُ بلاء ليس يسكن حرّها
لها أبداً في كل جارحةٍ جمر

أتمنع صبيان النبي على ظما
من الماء جل الله قد عظم الأمر
بنفسي أبناء الرسول وعرضه
بعرضي لأني عبدهم ولي الفخر
ويا ليت نحري دون نحرك سيدي
فمثلك من يوقيه يوم الوغى النحر
فتباً لأقوام عليك تحزبوا
وقادهم سوء الطوية والمكر
لئن أفسدوا دنياك يا صفوة الورى
فلا ريب قد ضلوا وتم لك الأجر
على أي مرء قد أغارت خيولهم
على ابن الذي في الحرب تعرفه بدر
على القسور الضرغام والبطل الذي
له الغارة الشعواء والفتكة البكر
ولولا مغاوير جرت بعنانها
لطال (يزيد) الرعب وانفطر (الشِّمر)
حسين! (حسين) جاء يرجوك ضارعاً
لدهر به من فتكه النابُ والظفر
وأصبح يا آل الرسول ببابكم
وأدمعه في كل خد لها نهر
فقوموا به وأرعوا محل جواره
وكونوا له ذخراً فقد أعوز الذخر
على جدكم صلى وسلم ربنا
وأرضاكم الرحمن ما طلع الفجر
كذلك على الصحب الكرام رضاؤه
لأنهم قومٌ قساورة غُر

وحياكم الرحمن ما انقض كوكبٌ

وما فاح من أكناف أرضكم عِطر

وللعشارى تخميسات جميلة لأبيات اختارها لشعراء سابقين، منها[١٤]:

بنو المصطفى يا غاية القصدِ والمُنى

نزلنا بكم إذ مسَّنا الضُّر والعَنا

نقول وخطبُ الدهر في الحال إن دنا

(حسين إذا ما ضاق رحب من الدنا)

(وحل بنا للفادحات نزول)

* * *

بجاهك عذنا والأمور عسيرة

فما هي إلاّ فذة[١٥] ويسيرة

وإن عرضت يوماً خطوب خطيرة

(بقبرك لذنا والقبور كثيرة)

(ولكن من يحمي النزيل قليل)[١٦]

وفضلاً عن زيارات العشاري المتكررة إلى كربلا، ونظمه القصائد في ساكنها الكريم، فإنه كان ينظم القصائد في مناسبات أخرى أيضاً، لا سيما حينما كان يدعى إلى النزول في دور اصدقاء له هناك، أختاروا أن يشيدوها في هذه المدينة تبركا وتشرفا.

من ذلك قوله واصفاً قصراً أحدثه صديقه عبد الله جلبي بن يوسف بك من آل عبد الجليل أمراء الحلة المعاصرين له، وكان فاضلاً شاعراً، في قصيدة رائية من بحر البسيط[١٧]:

قصرٌ عليه رواق العز مقصورُ

وصارمُ النصر في أعلاه مشهورُ

ويفهم من أبيات القصيدة فخامة القصر، ففيه قبة وبُرج،وتحيط به الأشجار العالية، وفي أطرافه الزهر من النرجس وورد الجوري،وثمة طيور متنوعة تصدح. ولما كان موقع القصر مقابلا لقبة الإمام الحسين عليه السلام فقد اتخذ من هذه المقابلة سبباً لمدحه والتعريض بأعدائه، فقال:

ذاك الذي عَزَّ مقداراً فليسَ له

في العصر شبهٌ وتمثيلٌ وتنظيرُ

غيث وما الغيث إلاّ من أنامِله

ليثٌ وما الليثُ إلا منه مذعورُ

لا يألف الذهبُ المضروب راحته

لأنه للذي يرجوه إكسير

يا صاحب القبة العلياء والشرف الـ

ـذي على شرفات العز مسطور

أنتَ المليك الذي لولاه ما بُنيت

تقاعد الفضل والشُم المشاهير

ونيِّر المجدِ لا يخفى على أحدٍ

إلاّ إذا نظر العِميان والعُور

لا بأس إن عَبَث الكلبُ العقورُ بكم

فالبدر ينبحه كلبٌ وخنزير

يريد يطفئ نور الله من حسد

وحيطة الله من أطرافه سور

وكان رجلٌ من معارفه يدعى (حسين) قد دعاه إلى حضور افتتاح حمام أنشأه في كربلا، فنظم فيه قصيدة رائية من بحر الخفيف[١٨]، هي:

أيها الواحد المُسمَّى (حسيناً)
نلت فضلاً برأيك المستنيرِ
فاق حمامك السُّها حيث أضحى
في ديار الحُسين نجل الأمير
طابَ نشراً ولما فاحَ عِطراً وأضحى
لجميع الورى شفاء الصدور
دارُ لطفٍ ورقة وصفاءٍ
وضياءٍ وبهجةٍ وحُبور
لم يكن في الدنا له شبيه
ومثيل وما له من نظير
قُم به واخلع الثياب وروِّح
هناك جسماً بمائه المستدير
واغتسل من حياضه وتستر
عن كبير من الورى وصغير
ثم قل للذي بناه بجِلٍّ
فزتَ يا ذا العُلى بخير كثير
أم حمّامك الأنيق فأرِّخ
جاء في حوضه بماء طهور
١١٨١

وهكذا سجل لنا العشاري، فضلاً عن لواعجه تجاه الإمام الحسين عليه السلام، معالم كربلا في عصره، ما كنا لنعرفها لولا وصفه إياها في شعره.

الهوامش والمصادر

(١) هي رحبة مالك بن طوق (الميادين حالياً)، وصفها ياقوت في (معجم البلدان، ج٣، ص٣٤) بأنها بين الر قة وبغداد، على شاطئ الفرات، أسفل من قرقيسياء.

(٢) محمود شكري الآلوسي، المسك الأذفر، بغداد، ١٣٤١هـ، ص٨٩.

(٣) محمد خليل بن علي المرادي أبو الفضل، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، المطبعة الميرية، بولاق، ١٣٠١م، ج١، ص٧٠.

(٤) المسك الأذفر، ص٨٧.

(٥) المسك الأذفر، ص٨٢.

(٦) تنظر مقدمتنا لديوانه، ص٣٠- ٣٣.

(٧) لا إشارة إليه في كتاب (أدب الطف أو شعراء الحسين عليه السلام) تأليف جواد شبر، دار المرتضى.

(٨) الديوان، ص٣٩٦.

(٩) سال في لغة طي.

(١٠) الديوان، ص٣٨٤.

(١١) من بيت للمتنبي.

(١٢) الديوان، ص٣٦٧.

(١٣) يريد انه ورد في الحديث الشريف.

(١٤) الديوان، ص٥١٨.

(١٥) الفذة: الامر المتفرد.

(١٦) ورد هذا البيت في قصيدة لمحمد زيني البغدادي (ولد ١١٤٨ وتوفي ١٢١٦هـ).

(١٧) الديوان، ص٥٠٢.

(١٨) الديوان، ص٥٤٨.